

مجلد الجمع العلمي العربي

(دمشق) آب سنة ١٩٢٦ م

الموافق محرم وصفر سنة ١٣٤٥ هـ

إعراس^(١) الخليفة المأمون

« بيوران بنت الحسن سنة ٢١٠ هـ »

—>000<—

إيها السادة :

نستأذنكم في بيان لا بد منه . نجعله تمهيداً للوصول الى ليلة العرس وهو ينطوي على التعريف بالعريس ، وقد لا يوجد بيننا من يجمل صاحب هذا الاسم العظيم ، الا ان في تعريفنا فائدةً وفكاهةً غير خارجتين عن موضوع محاضرتنا . وفي علمكم ان الدخول على العظماء من السلاطين والامراء ، لم يكن مباحاً الا بعد الاستئذان ، وانتظار الايام الطوال . لصدور الاوامر الملكية ، ثم لا يتم ذلك الا بعد المرور في الساباطات والاقباء . ودخول القصور والتقدم في متعدد الأبنية والرداء والأبهاء ، الى ان يُبشّر بالوصول الى بهو السُدة . ومعاينة صاحب السرير ، ونحن سنسير على هذا النحو ، فننتقل من تعريف الى تعريف ، حتى نصل الى وصف ذلك العرس الشريف .

اما المدة او المسافة التي بيننا وبين ليلة العرس فهي الف سنة ومئة واحد وثلاثون سنة (١١٠٦ مسيحية) وهي مسافة شاسعة لا يمكن قطعها في ليلة واحدة ، بل لا بد لنا من تجاوز هذه المدة ايضاً الى ما قبلها بمئتين واربع عشرة سنة ، فتكون

(١) محاضرة الاستاذ الحق قسطنطين بك الحمصي احد اعضاء الجمع العلمي

تُليت باسمه في ردهة الجمع بدمشق يوم ٢٨ ايلول ١٩٢٣ م .

جملة المسافة التي نجتازها للوصول الى بدء تأريخنا ، ألفاً وثلاثمائة واحد وستين سنة هجرية (١٣٢٠ مسيحية) .

ولا يهولنكم قطع هذه المسافة الشاسعة ، فاننا في عصر الكهرباء ، وسنجاري الكهرباء بسرعتها ، فنقطع كل سنة بثمانيتين .

للأُم وملوكها ودولها تواريج مجهولة ، وتواريخ معلومة ، اما المجهولة فهي المدد التي عاشت فيها تلك الامة دون دول وملوك ، وكانت في حالة العجمية ، وامانوار يخفا المعلومات ، فالقديمة منها ما وصلت اليها اخبارها وشاهدنا بعض آثارها ، كالدول المصرية القديمة . واليهودية . والكلدان . والاشوريين . والحثيين . وفارس . واليونان . والرومان . والعرب . وكثير غيرها ، وكلها قد باد ملكها وزالت دولها ، وتشعبت شعوبها وانقرضت وضاعت لغات اكثرها حتى لم يبق على وجه الارض فرد ينطق بها او يقرأ كتاباتها او يحل رموزها ، ولا يُستثنى من مئات تلك الامم ، الامة واحدة ، هي الامة العربية ، أمتكم .

« الامة العربية »

هذه الامة أقدم الأمم من بعد قوم نوح ، وأعظمهم قدرة . وأشدهم قوة . وآثاراً في الارض ، واول أجيال العرب من الخليقة ، وكان لهم ملوك ودول في جزيرة العرب ، وامتد ملكهم الى الشام ومصر وقيل ان فراعنة مصر منهم ، ويقال انهم انقلوا الى جزيرة العرب ، من بابل لما زاحمهم فيها بنوحام ، ثم كان لكل فرقة منهم ملوك وحصون وقصور وابنية مرتفعة ، وكانت مواطنهم بين اليمن وعمان الى حضرموت والشحر ، وقوم منهم العماليق اختلطوا يثرب ، ومن العرب بنو ثمود وكانت ديارهم بين الحجاز والشام وكانوا ينجثون بهوتهم في الجبال ، وهؤلاء كلهم يسمون العرب العاربة او العرب البائدة لظموس اخبارهم وبُعْد تواريخهم وهم الطبقة الاولى من هذه الامة . اما الطبقة الثانية منها وتسمى العرب المستعربة ، فأشهر ملوكها يرب بن قحطان واشهر شعوبها حمير وكنان .

واما الطبقة الثالثة فتسمى العرب التابعة للعرب وهم من البادية اهل الخيام لم يزالوا من أعظم أمم العالم واكثر أجيال الخليقة ، ينهي اليهم العز والغلبة بالكثرة ،

فيظفرون بالملك ، و يغلبون على الاقاليم والأمصار ، ثم يهلكهم الترفه والنعيم فيُغلبون .
وهذا كله ملخص عن ابن خلدون وهو من ثقات المؤرخين .

ولقب العرب بعد الاسلام من كان قبلهم على أمتهم بالجاهلية ، اختصوا بذلك عبدة الاصنام والمشركين ، اذ انهم كانوا يعلمون ان قبائل خيبر يهود عرب مثلهم ، وعرب الشام نصارى وكان لهم قبل ذلك ملك الحجاز ، وكلاهما اهل كتاب .

ولكن هذا اللقب لا يصدق ايضاً على عبدة الاصنام والمشركين من العرب اللهم الا من قبل تمسكهم بعبادتهم بعد الاسلام ، اوجهلهم الكتب المنزلة ، قال في كتاب موسوعات العلوم الكبيرة الفرنسية ما نعر به : ان هذا النعت لا يطابق الحقيقة ، اذ للبدو معرفة واسعة بالانساب وكل ما يتعلق بالتاريخ ، وكانوا يعرفون مراقبة سيرا النجوم ، بل فوق ذلك كله كانوا يقرضون الشعر المتخيل اللطيف ، وهو ما لا ينفق مع الخشونة التي ألصقوها بهم ، ثم انه وان كان الكلام عن عامة العرب ، فيجب ان لا يفوتنا ان العرب كانوا قسمين ، قسمًا ظاعناً ، وقسمًا مقبياً ، فالقائمون منهم كانت لهم مدن في الامصار العربية ، وهؤلاء أدركوا شوطاً بعيداً من المعارف .
انتهى كلام الموسوعات .

وان أمة بنت سد مأرب ، وقصر غمدان ، وضربت السكة ، ونقشت عليها صور ملوكها ، واخترعت الحروف الحميرية ، وكتبت وحفرت كتاباتها على الحجر وغيره ، وهي بين أدينا بعد عشرين قرناً ، نقول ان أمة كهذه قد انقنت ولا ريب فن الهندسة وما يتعلق بها ، ورصدت النجوم ، وقرضت محاسن الأشعار ، وبرعت في غير ذلك من العلوم والصناعات ، لانكر عليها المدنية كما انكرها عليهم بعض علماء المشرقيات في الغرب ، ومنهم العلامة (پړو Preux) ، الا انه لم ينكر المدنية الشرق الاسلامي كما تغالى بعض متعصي الفرنجة ، فأنكر الهندسة العربية ، والعربية الاسلامية وآثارها ماثلة للعيان في الاندلس وغيرها ، ولكن لا عبرة بقول من يجحد المنظورات والله در القائل :
ويظهر الجهل بي وأعرفه والدر در برغم من جهله

هذه أيتها السادة مقدمة إجمالية ، في اولى الامة العربية ، ولما كانت جميع الدول العربية السابقة الاسلام ، كالعبون بالنسبة الى الاوقيانوس ، او كالبروق في ظلمات

الليالي ، بجانب الشمس المنيرة يحمل بنا ان ننظر في أولية الدول العربية ومنشئها :
خذ ما نظرت ودع شيئاً سمعت به في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل
« دولة الخلفاء الراشدين »

اول عظيم قام في العرب ، هو ولا ريب النبي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب
ابن هاشم الى عبد مناف فما فوقه . ثم خلفه بعد وفاته ابوبكر الصديق ، ثم خلفه عمر
ابن الخطاب ثم عثمان بن عفان ، ثم علي بن ابي طالب . وهذه هي الدولة العربية الاولى في
التاريخ الاسلامي ، بدؤوها منذ اعلان محمد نبوءته ، وذلك لستمائة وعشرين سنة
مسيحية اي بعد مولده الشريف باثنتين واربعين او احدى واربعين سنة الى وفاة
الامام علي مقتولاً وذلك سنة ٦٦٧ فتكون مدتها نحو سبع واربعين سنة . فتحت بها
هذه الدولة البدوية ، اليمن والعراق والشام (اي سورية) بفلسطينها ، وممالك
فارس وارمنية ومصر وطرابلس الغرب وبلاد اذربيجان وافريقية والاندلس
وقبرس والافغان .

« بدء الدولة العربية الثانية دولة بني أمية »

في السنة الاربعين من الهجرة وهي السنة السابعة والستون بعد الستمائة للمسيح ،
بويج بالخلافة في بيت المقدس اول من أسس دولة بني أمية وجعل سرير الخلافة
في دمشق .

ومعاوية هو السلطان العظيم داهية رجال العرب معاوية بن ابي سفيان صخر بن
حرب بن أمية الذي يُنسب اليه الأمويون ، ملك ثمانى عشرة سنة ، وكان في الحلم
غاية لا تدرك ، وما يؤثر من كلامه قوله : اني لأرفع نفسي من ان يكون ذنب أعظم من
عفوي ، وجهل أكبر من حلي ، وعورة لا أوارىها بستري ، وإساءة أكثر من
احساني » وأغلظ له القول رجل ، فقيل له : « أتحمّل عن هذا ؟ فقال اني لا احول
بين الناس وألسنتهم ، ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا » .

وهو اول خليفة في الاسلام ، بايع ولده واكره الناس على مبايعته واول من
استعمل الحجاب على بابه من ملوك العرب ، واول من اتخذ منهم ديوان الخاتم وحزم
الكتب اي ختمها .

ومن مُلح التاريخ ان عامله على مصر عمرو بن العاص أول ما قدم عليه في جماعة من اكابر مصر قال لم عمرو قبل دخولهم على معاوية : لا تسلوا عليه بالخلافة — اي لا تقولوا له السلام على أمير المؤمنين — ذلك أهيب لكم في قلبه وصغروا ما استطعتم ، وبلغ ذلك معاوية فأوصى حجاجه ان يتعتعومهم أشد ما يكون قبل دخولهم عليه ، اي ان يسترهبوهم ويستزلوا الرعب والخوف على قلوبهم فيتعتعوت ، اي يستولي عليهم العبي والحصر فيترددون في كلامهم ، فقال اولهم عند دخولهم السلام عليك يا رسول الله وثناي القوم على ذلك ، فلما خرجوا قال لم عمرو لعنكم الله نهيتكم ان تسلوا عليه بالامارة فسلمتم عليه بالنبوة .

وخلفه بعده ابنه يزيد ملك ثلاث سنين وتسعة اشهر واياماً . ثم ملك بعده ابنه معاوية الثاني اقام اربعين يوماً ومات . وتولى الخلافة بعده مروان بن الحكم بن أمية وأقام عشرة اشهر وتوفي . ثم خلفه في الملك بعده ابنه عبد الملك ، وكان من اعظم بني أمية بطشاً ، واوفرهم دهاءً ، واكثرهم حروباً ، واشدهم شجاعة وحزمًا ، واغزرهم علماً وعقلاً ، وهو اذل من ضرب الدنانير والدرام في الدول العربية بعد الاسلام ، واذل من نقل الديوان ، اي حسابات الدولة من الفارسية الى العربية ، واذل من نهى عن الكلام في حضرة الخلفاء ، وكانت مدة ملكه عشرين سنة وخمسة اشهر ودفن بدمشق . ثم خلفه ابنه الوليد وكان جباراً عنيداً ، وكانت مدة ملكه تسع سنين واربعة اشهر واياماً . ثم خلفه اخوه سليمان وملك سنين وسبعة اشهر . ثم خلفه ابن عمه عمر ابن عبد العزيز بن مروان ، ظل سنين واربعة اشهر ، ودفن بدير سمعان ، وبه وبعمه ابن الخطاب جرى المثل بعدل العمرين . ثم خلفه يزيد بن عبد الملك وأقام اربع سنين . ثم خلفه اخوه هشام وأقام تسعة عشرة سنة واياماً ودفن بالرصافة . ثم تولى بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك اقام سنة وشهرين ونيقاً وقتل بدمشق . ثم تولى يزيد بن الوليد اقام خمسة اشهر واياماً . ثم خلفه ابراهيم بن الوليد اقام سبعين يوماً وخلع نفسه . خلفه مروان الثاني اقام خمس سنين الا عشرين يوماً ، وكان شجاعاً حازماً ، الا ان ايامه كانت ايام فتن وحروب ، قُتل باخراها في كنيسة من بوصير بصعيد مصر ، وكان هارباً من وجه العباسيين ، وهو آخر خلفاء هذه الدولة ،

وعدتهم اربعة عشر خليفة . بنوا المدن ، ومدنوا القبائل وغزوا وفتحوا ، وعمروا بلاداً عديدة ، ومدوا ملكهم الى الهند بآسيا ، والى صقلية اى سيسيليا باوربا ، والى افاصي المعمور من افرقية في مدة تسعين سنة فقط .

« الدولة الثالثة وهي دولة العباسيين »

بدأت بابي العباس الملقب بالسفاح لكثرة من قتل في اول دولته وسميت بالعباسية نسبة الى جد هذا البيت ، العباس من بني هاشم ، وبنو هاشم وبنو أمية ينتمون جميعاً الى عبد مناف ، وكلهم من قبائل قريش ، ويدعي الهاشميون الرئاسة وتعترف لهم بها قريش كلها الا ان بني أمية كانوا أكثر عدداً من بني هاشم ، والعزة بلا أكثر ، ولهم قبيل الاسلام شرف معروف ، فوصل معاوية الى الخلافة بذلك ، وأسس قواعد الدولة الأموية ، فكأن بين العباسيين وبين الأمويين منذ تبوأ معاوية الخلافة ، ما يكون بين بيوت الملك في الدبل ، من التحاسد والتضامن ، وكان العباسيون لا يفترون هم وقومهم من بني هاشم ، عن نصب المكائد ، وتسعير الفتن وايفار الصدر ، والظمن على اعمال الأمويين وعملهم ، والادعاء عليهم باغتصاب الخلافة من بيتهم ، وكان الأمويون يشددون على بني العباس وشيعتهم ، بين سجن وتعذيب وقتل كلما رايهم منهم مرئ ، وكان بين البيتين من الوشاة والحساد والمفسدين ، ما يكون مثله في قصور الملوك ودور الامراء ، سنة في الخلق وخليفة من طبائع العمران . ولم تعد دولة الأمويين خلفاء يعدون من أعظم ملوك الارض دهاءً وتديباً وحزماً وعدلاً ، كهبد الملك بن مروان وابنيه الوليد وهشام وعمر بن عبدالعزيز ، كما انها لم تخل من خلفاء أبطرهم الملك فأفسدوا وأساؤا كالوليد بن يزيد ، وكانت اتسعت فتوح الدولة الأموية وامتد ملكها امتداداً لا يصفونه ، الا العدل والقوة والتدبير ودهاء السياسة . وكان دعاة بني العباس منذ زمن طويل قد انتشروا في الحجاز والعراق وبلاد فارس ، يبشون الدعوة للعباسيين ، ويفسدون على الأمويين اعمالهم ، ويطعنون فيهم وفي عملهم حتى انخرط عنهم أكثر قلوب الامة .

ولما استوثق السفاح من شيعته ، جاهر بدعوة الخلافة لنفسه ، فبايعه الناس بالكوفة وغيرها في السنة الثانية والثلاثين بعد ائمة الهجرة ، وهي تقع في الخمسين بعد

السبعائة للمسيح ، وظلت خلافتهم في بغداد خمسمائة واربعاً وعشرين سنة ، تولاهما سبعة وثلاثون منهم ، ثم انتقلت الى مصر وتولاهما فيها ثلاثة عشر خليفة منهم ، خلافة لم يكن لهم منها غير الاسم .

أقام السفاح اربع سنوات وأشهرآ وتوفي سنة ١٣٦ (سنة ٧٥٤ م) . ثم خلفه اخوه ابو جعفر المنصور ، كان مهيباً شجاعاً بقطاً مدبراً عالماً فصيحاً ، داهيةً ظالماً بخيلاً ، بنى مدينة بغداد ومهد اطراف ملكه الشاسع ، وترك عند موته خزينة الملك مملوءة من أموال الخراج والمظالم ما يكفي خلفه عشر سنين ، بعد ان أقام في الخلافة اثنين وعشرين سنة وتوفي للثامنة والخمسين بعد المئة (سنة ٧٧٦ م) . ثم خلفه ابنه المهدي ملك تسع سنين وعشرة اشهر ، وكان حليماً كثير العفو عن المذنبين ، باهر الجمال ، توفي مسموماً على اصح الروايات للتاسعة والستين بعد المئة (سنة ٧٨٦ م) . ثم خلفه ابنه موسى الهادي ملك سنة وثلاثة اشهر ، وكان جواداً فصيحاً عالماً مهيباً ، مات مسموماً في السبعين بعد المئة (سنة ٧٨٧ م) .

اما هرون الرشيد فهو ابعد ملوك الارض صيتاً ، وأعظمهم همّةً ، وأكثرهم غزواً ، وأوفرهم حباً للأدب والشعر ، وأشدّهم كرمًا ، كان داهيةً باحوال السياسة ، شديد البطش ، عالماً ناصراً للفنون ، شاعراً محباً للعمران والحضارة ، زين بغداد بالقصور المتعددة ، والمباني الفخمة ، والمصانع النافعة ، والمدارس والمساجد ، وبنى مدينتي الرقة والهارونية ، ولم تزل أطلال قصره وبعض جدرانه قائمة الى اليوم في الرقة . وقد شاهدتها وعدت عنها حزينا .

ولم يسبقه احد من ملوك الارض بفرط تكريم العلماء والشعراء ولم يحساكه احد بوفور الانعام عليهم ، وكان موفقاً محظوظاً .

فقد ازدان ملكه بوزرائه بني برمك الذين كانوا من محاسن الدنيا عقلاً وحكمة ، وادباً وجوداً ، ثم نكبتهم نكبة نناقلتها القرون ، لاستبدادهم بالملك والملك عقيم .

الا ان بعض مؤرخي الفرنج — ومتأخرهم ينقل عن مقدمهم ما يروونه عن العرب دون تحييص — لم ينصفوا الرشيد فأكثرهم يصنه انه كان أثراً ظالماً عنياً ، يستشهدون بابقائه بالبرامكة وبما حكاه القصاص من العرب عن نكبتهم ، وما تكهنوه لها من

الاسباب التي تخالف كل قياس منطقي ، وذلك نقلاً عن السنة العامة بعد وقوعها بزمان طويل . اذ اننا لم نجد مؤرخاً ثقةً نقل حقيقة السبب الذي حدا الرشيد الى ذلك القصاص الشديد بعد علو القدر وجلالة المنزلة التي كانت ليجي البرمكي واولاده عنده ، وأحسن ما قرأته عن ذلك وأحسبه أقرب الى الحقيقة من كل ما روي ، ما ورد عن سعيد بن سالم وقد سئل عن جنابة البرامكة فقال ما تحصيله : ان الرشيد رأى كثرة حمد الناس لهم ورميهم بآمالهم دونه . والمملك تنافس باقل من هذا ، الى ان قال ووقع منهم بعض الادلال خاصة جعفر والفضل دون يحيى : فانه كان أحكم خبرةً وأكثر ممارسةً للامور ، ولاذ بالرشيد من اعدائهم كالفضل بن الربيع فستروا المحاسن وأظهروا القبايح .

هذا ما ظهر لهذا الرجل ، وما يدرينا ما ثبت عليهم عند الرشيد من الذنوب والجنایات ، كما صدر امرٌ او نهي باسم الخليفة دون مشورته ، او استخفاف باوامره ونواهيهِ ، ولعل هذا كل السبب في ذلك كما يفهم من اطلاق جعفر ليجي بن الحسين وكان خارجاً على الخلافة ، ولما سأله عند الرشيد أقسم له برأسه انه لم يزل محبوساً ، وكما يفهم من الابيات التي رفعت الى الخليفة وهي :

قل لأمين الله في أرضه	ومن اليه الحل والعقد
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا	مثلك ما بينكما حد
امرك مردود الى امره	وامره ليس له رد
وقد بنى الدار التي ما بنى	فرس لها مثلاً ولا هند
ونحن نخشى انه وارث	ملكك ان غيبك اللحد
ولن يباهي العبد أربابه	الا اذا ما بطر العبد

ونحن نرى في هذه الحكاية ووراء هذا اللفظ بداً بل أيدياً عباسية ، وصدوراً مُثلت حقداً على جعفر وغيره منه ، ونفساً هاشمية ، والباقد البصير يرى في صلب جعفر وحبس ابه وأخيه وسائر قرابتهم ، ما يؤكد ان ذلك القصاص الشديد كان قمعاً لفئسة كامنة ، وقطعاً لالسنه طاعنة ، وردعاً لكل استخفاف بسلطان الخلافة ،

وقد حُظِر على الناس التحدث بذلك يومئذ كما يفهم من قول الشاعر الرقاشي في رثاء البراءة صكة :

فلم ار قبل قتلك يا ابن يحيى حساماً فلّه السيف الحسام
اما والله لولا خوفُ واش وعين للخليفة لا نسام
لطفنا حول جذعك واستمنا كما للناس بالحجر استلام

ووقع أمثال هذه الحادثة بعدها في كثير من دول الغرب ، ورأى غير واحد من مؤرخيهم عدالة ذلك القصاص في شرع السياسة . على ان أدق من نظر من المؤرخين في هذه الحادثة نظراً سياسياً مطابقاً لعادات ذلك العصر وشؤونه ، ودحض هذر القصاص ، هو الفيلسوف ابن خلدون ، وبهذا كفاية للرد على أقوال بعض المؤرخين من الفرنجة وغيرهم .

ولنعد الى نعمة الكلام على هارون الرشيد فقد تحلى بلاطه بعظماء الرجال من كل فن ، فمن أطبائه آل بختيشوع ، ومن شعرائه ، ابو نواس . وابو العتاهية . ومسلم ابن الوليد . والعباس بن الاحنف وأضرابهم ، ومن القصاص الخليل بن احمد واضع العروض . والاصمعي ، ومن الندماء ابراهيم الموصلي . وزلزى . وابن جامع . وابن الزلف . وأضرابهم ، وقضاته ابو يوسف يعقوب الانصاري وابنه يوسف . وابو البخترى ذهب القرشي وأمثالهم ، ومن العلماء سيبويه . وابن يونس ، ومن الأئمة ابو حنيفة . والشافعي . والامام احمد بن حنبل . ملك اثنين وعشرين سنة وسبعة اشهر شمسية وتوفي للسنة الثالثة والتسعين بعد المئة للهجرة (٨١٠ م) في طوس ودفن بها . وأجمع المؤرخون على ان الرشيد ترك في بيت المال تسعمائة الف الف دينار ، والدينار يساوي مثقالاً ذهباً او نحو ليرة فرنسوية ، ولعل الاصل تسعون الف الف اي تسعين مليوناً .

وقال ابن خلدون وهو ثقة : رأيت في بعض تواريج الرشيد ان المحمول الى بيت المال في ايامه سبعة آلاف قنطار وخمسمائة قنطار في كل سنة انتهى قوله . والقنطار فيما ذهب اليه المحققون اربعة آلاف دينار ، فتكون جملة ذلك ثلاثين مليوناً من الدينارين ، وهو مبلغ لا يستكثره من وقف على سلطان الدولة العباسية . وقد كانت

الدولتان العربيتان قبلهما مهدتا لها الملك الشاسع ، فاستباحنا لها ملك فارس والروم
اهل الدولتين العظيمتين في العالم لذلك العهد ، والترك بالشرق حتى الصين ، والفرنجة
والبربر بالمغرب ، والقوط (الكوت) بالاندلس ، وخطت جنود العرب من الحجاز الى
السوس الاقصى ، ومن اليمن الى الترك باقصى الشمال واستولت على الاقاليم السبعة .
وكانت لعهد الرشيد تحمل المكوس والضرائب والجزية والخراج الى بيت المال من
الهند والصين ومصر وفارس وسورية وغيرها .

ثم خلفه ابنه محمد الامين أقام في الملك اربع سنين وخمسة اشهر اوتزيد ، وكان
شجاعاً اديباً شاعراً ، محباً للهو ناقص التدبير ، فاختل الملك ، وسعى الوشاة بينه وبين
اخيه المأمون ، ففسد ما بينهما ، وكثرت الفتن وقامت الحرب بينهما ، وقتل في
آخرها الامين وذلك سنة ١٩٨ (٨١٤ م) .

ثم قام في الملك بعده بطل محاضرنا امير المؤمنين ابو العباس عبد الله المأمون
السابع من بني العباس . واذا وصل بنا الحديث الى خلافة المأمون ، فيجدر بنا ان
نلقي نظرة اجمالية على بسيط ملكه الممتد الاطراف ، البعيد الاكناف ، ثم على دخل
خزينته ، ليكون السامع على ثقة بما نرويه عن نفقات ذلك العرس ، وهو مما لم يرو
له شبه في تاريخ أمة من الامم ، ثم نلح بغضاد مقر الخلافة العباسية لمحة سريعة
لنعلم كيف كانت لعهد ذلك العرس ، ثم نلم بشيء من صفات المأمون واخلاقه وعلومه
وغزواته ، ثم نعرف بحمي الخليفة وهو الحسن بن سهل ، ثم يبوران ابنه عرس المأمون .
« المملكة العباسية »

كانت المملكة العباسية لعهد المأمون ممتدة في آسيا من بغداد وسائر العراق الى
الحجاز واليمن وفلسطين والشام (اي سورية) وارمنية ومملكة فارس (ايران)
وافغانستان وقسم من الهند والصين ، ثم مصر في افرقية واكثر المعمور منها ايضاً ،
قال ابن خلدون : وجد بخط احمد بن محمد بن عبد الحميد عمل (اي حساب) بما يحمل
الى بيت المال ببغداد ايام المأمون من جميع النواحي نقلته من جراب الدولة (اي دفتر)
وعددت الغلات بلداً بلداً ومملكة مملكة فبلغت ثلاثة ملايين وثمانمائة وسبعة عشر
الف دينار ومائتي مليون وسبعة وستين مليوناً وثمانمائة وخمسة وعشرين ألفاً وثمانية

دراهم ٥٠ . فاذا حسب الدرهم عشر الدينار حسب رواية ابن خلدون وغيره ، كان مجموع الدّخل في تلك السنة ثلاثين مليوناً من الدنانير ، ما خلا الوفاً من سبائك الفضة ، والوفاً من الحيوان كالخيل والبغال والبراذين والبقر والغنم ، والرقيق والثياب والاكسية الحريرية والزيت والعسل والعود الهندى والفرش والبسط والتبر وعطر الورد والسكر وغيره ، وذلك كما كان لعهد ابيه هرون الرشيد حسبا بيناه بل ربما زاد عنه ، وهذه الاموال كانت تحمل الى بيت المال من العمال والولاة في تلك الاقطار ، وكان الخليفة يولي عليها كبار الرجال والقواد من اهل بيته ، او ممن لم سابقة خدمة في الدولة من اهل الكفاية والتدبير ، وهؤلاء يولون من هم دونهم من ذويهم وصنائعهم على جباية الخراج ، وكانوا في الغالب يعملون الجباية إقطاعاً اي الزاماً او مزايادة ، كالمشير ليو منا هذا ، ولما كان الظلم من الاخلاق الانسانية ، والامانة عزيزة في الطباع البشرية ، وكانت الفتوح في ذلك العهد وقبله كثيرة ، وطرق الكسب والغنائم سهلة متوفرة ، فكان كسب الولاة وعمالهم يومئذٍ مما لا يكاد يصدق لولا ما لدينا من الحقائق التاريخية التي لا ريب فيها .

وكان للدولة العباسية خزانة أخرى تسمى بيت مال المظالم ، وهي الاموال التي كان يستصفيها الخليفة من وزراءه وعماله ، او التي كان يعتصرها الولاة والعمال ممن هم دونهم عند الارتياب بامانهم ، او الطمع بثروتهم ، فيُنزلون عن مراتبهم ويسجنون ، وعاقبة ذلك في الغالب القتل صلباً او خنقاً ، وأُستصفي أموالهم من صامت وناطق ، وأُملا كلهم جميعها وتحمل الى بيت مال المظالم . واما ما كان هنالك من كنوز الأموال والدرر النادرة ، والجواهر الفريدة ، وخزائن التحف الثمينة ، وعجائب المصنوعات فحدث عن البحر ولا حرج ، ومثل هذا كان جارياً لذلك العهد وبعده ، في سائر الدول ، دون بيت مال يسمى مال المظالم ، وليس عهد ذلك ببعيد في الدولة التركية . فاذا علم هذا كان تمهيداً لما يأتي عن ثروة الحسن بن سهل ختن المأمون وكرمه الجلم .

« للكلام صلة »

فسطاكي المصممي



إعراس الخليفة المأمون

- ٢ -

«مدينة بغداد»

أمر ببنائها أبو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين ، وأتم بناء قصره الكبير فيها في السنة ١٥٧ للهجرة ، وكانت لعيد ليلة العرس ، فسطاط العالم ، وأكبر مدينة على وجه الأرض ، وقد بلغت من العظمة والأبهة والسعادة ، ما لم تبلغه مدينة ، فشيدت بها القصور الفخيمة ، والصروح العظيمة ، والمصانع العديدة ، والجسور والقناطر والمدارس تحاكي القصور ، والمساجد الجليلة ودور الكتب ، والجنات والحدائق والبساتين ، والأسواق الكبيرة والوف الحمامات ، وأنشأ المأمون فيها مرصداً فلكياً ، وكانت دار الخلافة نفسها مرصعة بالمعادن النفيسة التي اجتمعت من أطراف الممالك ، وفيها من الحجارة الكريمة والأمتعة الثمينة ، والرياش الفاخر والآنية البديعة ، وغير ذلك من نوادر التحف وغريب الماعون ، ما لم يجتمع مثله في مدينة من مدن العالم ، وكانت ضواحيها آهلة معمورة حتى الرقة ، وعلى جانبي بغداد كانت المدن الصغيرة كالجعفرية ، والهارونية ، والمهدية ، والمأمونية ، وفيها القصور للخلفاء ولوزرائهم وقوادهم وأكابر الناس ، والصروح والجواسق والجنان والبساتين والمزارع والقرى والمصانع ، مما يعجز القلم عن وصفه ، وبلغ عدد سكانها يومئذٍ في أقل إحصاء مليون نفس ، وورد لبعض المؤرخين أنها بلغت المليونين .

كل ذلك في مدة لم تتجاوز خمسين سنة من وضع أساسها ، وهو ما لم يحكه التاريخ عن مدينة سواها على وجه البسيطة ولا عجب في ذلك ، فإن أحوال هذه الأمة البدوية الفتية ، قد حيرت عقول الفلاسفة والمؤرخين والعلماء ، قال الفيلسوف غوستاف لوبون ما محصله : أن مدنية الأمة العربية لم يسبق لها مثال في تاريخ البشر ، وقد لا يكون لها مثيل إلى الأبد ، إذ أن هؤلاء البدو الذين حين فتحهم ممالك فارس والروم ، حسبوا الخبز المرقق ورقاً عندما قدموه لهم ، وظنوا الكافور الذي وجدوه في خزائن كسرى ملحاً فاستعملوه في عجينهم ، هؤلاء البدو قد بلغت حضارتهم في

مدة قرنين ، ما لم تبلغه أمة من الأمم في قرون متطاولة ، فقد أنقنوا الصناعات ، وبرعوا في أصناف العلوم ، ونقلوها الى لسانهم ، وعلوها الام الاوربية ، فأوربا مدينة لهم اليوم باكثر علومها ، وأنقنوا في المأكل والمشروب ، والملبوس والمفروش ، وسائر أدوات الزينة وأسباب الترفه والنعيم ، وتركوا في الاندلس وغيرها من آثار حضارتهم ، ما يُدِيم لهم نفراً لا يبلّيه تقادم الزمان ، وتبدل الحدثنان .

وقال أرنست رينان سيبيويه علماء المشرقيات ما نعر به باللغة العربية : خرجت اللغة السامية من ضيق الدائرة التي ظلت سجنينةً بها الى ذلك الحين ، ووصلت الى مقام شمل به تأثيرها أقطار الدنيا ، ولم يشهد البشر فتوحاً ، أوفر اتساعاً وأعظم سرعة من فتوحاتها .

فاللغة العربية هي بغير مدافع ، اللغة التي امتد فتوحها في أوسع بقعة من الارض ، ولا يوجد بين اللغات سوى لغتين تقاسمتها شرف الانتشار ، وتعدّان لغتين عامتين ، وهما اليونانية واللاتينية ، أريد انها لسان دعوة دينية ، او فكرة سياسية ، وكلاهما فوق اختلاف الاجناس ولكن امتداد الفتوحات اليونانية واللاتينية ، لا يقارب الفتوحات العربية ، لان المتكلمين باللاتينية كانوا من كامباني (مقاطعة من ايطاليا القديمة) حتى الجزائر البريطانية ، ومن الرين حتى جبال الأطلس (في شمال افريقيا) وكان المتكلمون باليونانية من صقليا (سيسيلى) حتى دجلة ، ومن البحر الاسود حتى الحبشة .

وأين هذه كلها في جنب مملكة اللغة العربية العظيمة ، وقد شملت اسبانيا وافريقيا حتى خط الاستواء ، وآسيا الجنوبية حتى جزيرة جافاً ، وروسيا حتى قازان . وقال في موضع آخر من كتابه « التاريخ العام في اللغات السامية » : ان اوربا لم تُنج من تأثير اللغة العربية الشامل ، فالاسبانيول والبرتغاليون قد أخذوا الى لغتهم الفاظاً عديدة عربية في سائر الاشياء ، وحوّت جميع اللغات الرومانية - اللاتينية - عدداً كبيراً من الالفاظ العربية ، وجلها للتعبير عن الاشياء العلمية والصناعية ، وكانت أمم اوربا في القرون المتوسطة دون الاسلام (العرب) بمراحل .

اولئك أفوامي لجنّتي بثلهم اذا جمعتنا يا جرير الجامع

واذ جرى بنا الحديث الى الكلام عن لغة المأمون ، وهي لغتكم الشريفة أيها السادة : وكنا نظمنا منذ سنوات قرينة قصيدة في وصفها لحادثة معلومة في يومها ، ودعوناها (البدوية) رأينا ان نضمها في سلك محاضرتنا وان ظال عليكم الوصول الى ليلة العرس :

« البدوية »

بالله يا نسيمات الرند والبان
 وهل لمستن من ذات الدلال رداً
 فان فيكن ريحاً من ملابسها
 وهل لثمن من ليلى مباسمها
 اني أغار عليها من صواحبيها
 فان ليلى فتاة لا مثيل لها
 الى البدارة منسوب منابتها
 هيفاء لا قصر فيها ولا طول
 غزالة تسحر الالباب نظرتها
 تدنو لعاشقها تحفو لناكرها
 تشبه الخضرىات الحسان بها
 وكل ثوب عليها ثوب فائنة
 وثوبها يقبل الازياء ما اختلفت
 حروفها لمعان لا تطاولها
 ألفاظها درر تركيبها سور
 غريزة الفضل لم يجد محاسنها
 لها الفصاحة نزعى ابنا وجدت
 وفي البلاغة هل خوذ تضارعها
 وبعض خدامها عبد الحميد ومن
 وغيرهم من ملوك الفضل آخرهم
 من نجد جئن ام من روض غسان
 ام حدثكن من أقصى تلسان
 فطيب ليلى بانقاس وأردان
 اني عليها غيور اي غيران
 والحاسدات ومن انس ومن جان
 صيفت من الحسن شكلاً ماله ثان
 وان نمت فهل فخر كعدنان
 تجر أذيال إدلال وإنقان
 والمسك نكمتها لا ربح ربحان
 نثيب عدلاً بتنويل وحرمان
 وهل كذا بل جفن جفن سكران
 ولم يشن حسننها تبديل ألوان
 وليس يخلقه تكرار أزمان
 في حسننها بنت يونان ورومان
 آياتها غرر في كل قرآن
 الآ جهول بايجاز وتبيان
 شهودها مثل قس أو كسحبان
 وأصلها صاعد يسمو القحطان
 تلاه من اصفهاني ورجاني
 رب النهى اليازجي الكوكب الثاني

وكم لجنتها في أرض لبنان
والشعر محترقها من ذا ينازعها
بلابل الشعر غنتها بدائعها
وربة الشعر ناجتها مواهبها
وقلنت جيدها عقداً ترفع عن
فكل شعر الى أدنى منازلها
وهل أمية صالت واستقام لها
هل استعان على تشيت ما جمعت
وهل سما عرش هارون الرشيد على
والارض في ظلمة للجهل حاكمه
الا وأعلام ليلى غير خافية
وهل خليفته المأمون ردّ لما
الا بالفاظ ليلى غير ملتبس
ودولة الناصر العظمى باندلس
في كل فن بسهم وافر ضربت
لم يتخذ بدلاً منها ولا سنداً
وكم وكم دول من بعدها درجت
للشعر للعلم ليلى للفصاحة قد
وفي السياسة والتدبير كم خنقت
وفي الصناعات لم تعثر لها قدّم
مجازها واشتقاق لا مثيل له
ما ضرّها انها والحسن عابدها

من هائم في معانيها وبستاني
فيه وكم نبت من ندى حستان
على عجائب أوزان وألحاف
فانحط عن عرشها عرش لكيوان
عقود درّ وياقوت ومرجان
أعلى مراتبه مستشفع دان
ملك وطرف لليلي غير يقظان؟
الا بالفاظها ذاك الخراساني
ملك بناه على عدل وعمران
وملكه مشرق من نور عرفان
في كل مأثرة من غير برهان؟
علم الأوائل من أقوام يونان
في حسن تعريبها الفاظ أعوان
قامت بمدحش عمران وبنيان
ولفظ ليلى بأذان وأذهان
لها سوى بعض تباع وغلان
قامت بليلاي في سر وإعلان
جاءت بأبدع مروية لائسان
لحسنها راية من فوق تيجان
وفي الحروب تحطت كل ميدان
ونحتها معجزات كل بهتان
لها حواسد من أهل وجيران

..... انتهى ما يناسب الغرض منها .

« فتوح المأمون وغزاته وأخلاقه وعلومه وصفاته »

قامت في سبيل المأمون عقب إعلان خلافته عقبات شتى ، اذ انتشرت الفتن على أثر اختلافه مع أخيه المأمون وحروبها ، وطمع بالخلافة غير واحد من بني العباس ، واقترب الناس فرقاً ، فرقة مع هذا وفرقة مع ذلك ، وكادت ان تضع أركان الملك ، فأظهر المأمون من الحزم والشجاعة والحلم وخسن التدبير ، ما كان فيه نسيج وحده ، اذ قمع الفتن ، ومهد الأمن ، وبسط العدل ، وغزا وفتح فتوحاً جليلة .

وكان المأمون أعظم بني العباس سؤدداً ومجداً ، وغزماً وسماحة ، وحلماً وشجاعة ، وعلماً وفضلاً ، كثير العفو ، ومن مآثر كلامه « لوعرف الناس حيي للعفو لتقربوا اليّ بالجرائم » وكانت عارفاً باليونانية والعبرية والهندية والفارسية ، عالماً كبيراً وشاعراً وخطيباً ومحدثاً ، متبحراً في الفلسفة والهيئة ، فصيحاً محباً للعمران والحضارة ، ولم يكن نظيره في كل من تقدمه من الخلفاء في حب العلوم والمعارف ، وكان لشغفه بالأدب والفضل عقد عهد صلح مع (تيوفيلوس) ملك الروم في القسطنطينية على ان يستنسخ له جميع المصنفات اليونانية ، ووجه بعثاً آخر يحمل اليه من جزيرة قبرص كل ما وجد هناك من الذخائر العلمية وكانت الجزيرة قد دخلت في حوزة دولته .

فأمر المترجمين كحنين بن اسحق وثابت بن قره ويعقوب الكندي ويوحنا البطريق وغيرهم بتعريب ما لديهم من الكتب اليونانية والسريانية في الحكمة والطب والموسيقى والعلم الطبيعي والسياسة المدنية والنفس والحيوان والنبات والجبر والهندسة والهيئة ، وكان عنده جماعة كبيرة من النجمين لجمع علماء عصره وأمرهم ان يضعوا آلات الرصد ليقيسوا بها الكواكب ويتعرفوا أحوالها ، كما صنع بطليموس ومن كان قبله ففعلوا ، وأمر ببناء المرصد في الشماسية ببغداد ، ومرصداً آخر على جبل فاسيون في دمشق ، وسموه (الرصد المأموني) .

ومن أعماله الخلة في كتب العلم والتاريخ قياسه للدرجة من خط نصف النهار ، فانه أمر بني موسى محمداً وأخوه أحمد والحسن بالوقوف على دور كرة الارض وكان الافدمون يرون ان كل درجة من درج الفلك يقابلها ستة وستون ميلاً من سطح

الأرض ، فلما مسحوا الأراضي المتساوية وحرروها وجدوا ان حصة الدرجة ستة وخمسون ميلاً فقط وهو المعتبر ليومنا هذا بفرق قليل جداً .

ثم انه عكف على جمع الكتب وجعل القيم على خزانه كتبه محمد بن موسى الخوارزمي ، وهو اول من ألف في الجبر والمقابلة بالعربية ، ثم امر بإنشاء المدارس للعلوم المتعددة ، وكثرت الكتب في ايامه أيضاً ونفتت سوق العلوم ، وقامت دولة الحكمة في عصره كسائر الفنون والناس على دين ملوكهم .

وكان يجمع في قصره العلماء مرة في كل اسبوع ، وهو اول مجمع علمي عقده سلطان في قصره ، وكان يوزع جوائز ونزماً على المؤلفين البارعين في يوم الثلاثاء من كل اسبوع ، ويحضر بذاته المحاكمات في ذلك اليوم حسب الفقه الحنفي .
« وزراؤه وقواده وعماله وشعراؤه وأطباؤه وعلماءه »

كان في رأس وزرائه ذو الرئاسةين الفضل بن سهل السرخسي وكان داهية عاقلاً عالماً بعيد النظر حسن التدبير وفيه يقول مسلم بن الوليد :

أفمت خلافة وأزلت أخرى جليل ما أفمت وما أزلنا

ومن عماله الحسن بن سهل وهو اخو الفضل وسيأتي ذكره ، ومن قواده ذواليمنين طاهر بن الحسين الخزاعي الشجاع الأديب ، وهو صاحب الكتاب المشهور في كتب التاريخ والأدب ، كتبه الى ابنه عبدالله عندما ولاه المأمون مصرأ ، ولما وقف عليه المأمون قال ما أبقى ابو الطيب (يعني طاهرأ) شيئاً من امر الدنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة وإصلاح الملك والرعية ، الا وقد أحكم وأوصى به ، وامر المأمون فكتب به الى جميع العمال .

اما ابنه عبدالله هذا فكان أيضاً قائداً شجاعاً عاقلاً أديباً وتنسب اليه الابيات المشهورة .

نحن قوم تليتنا الحديق النجى - بل على اننا نلین الحديد

طوع ايدي الأطباء نفتنا دنا لعي - بن وقتاد بالطمان الاسود

وكان شعراء المأمون ابالغناية وصرع الغواني وعلي بن الجهم والصولي والخلع ابن باسر وأضرابهم ، ومن أطبائه حنين بن اسحق العبادي وجرس بن يحنشوع

ويعقوب الكندي وابوبكر الرازي وجبرائيل وقسطا ابنا لوقا البعلبيكي وأمثالهم ،
ومن منجميه الفرغاني وابن نوبخت ومحمد بن موسى الخوارزمي وأخواه وماشا الله
اليهودي وابن منصور والجوهري وأضرابهم ، ومن الفُصَّص الاصمعي وابو عبيدة ،
وأما العلماء والنخاة الذين كانوا يجلسون في حضرته فكثيرون نكتفي بذكر الفراء
والكسائي واليزيدي وقطرب والجاحظ والأخفش وأضرابهم ، ومن قضاته يحيى بن
أكثم وابو عبد الله الواقدي وأحمد بن أبي دؤاد ، ومن النخباء الامام الشافعي والامام
أحمد بن حنبل .

وان ما ذكرناه طرف من صفات المأمون وما كان يشتمل عليه بلاطه من الجهد
والمفاخر ، ولو قصدنا الى تصوير نفسه العالية الشريفة ، وتفصيل همته الصاعدة المنينة
لاحتجنا من الوقت الى شهر ومن اللفظ الى معادن الدر .

كان المأمون ربعةً أبيض جميلًا ، طويل اللحية رقيقها قد وخطها الشيب . فان
فاخرت الامم بقديمها وهي نفاخر دون شك ، فهذا قديمكم أيها السادة .
شرف ينطح النجوم بروق - يه وعزٌّ يقاقل الاجبالا
« الحسن بن سهل حمو الخليفة »

كان كريمًا عالي الهمة ولاه المأمون جميع البلاد التي افتتحها طاهر من كور الجبال
والعراق وفارس والاهواز والحجاز واليمن ، ومن تولى مثل هذا الملك الواسع في ذلك
الهد وكان حائزاً ثقة المأمون ورضاه لا عجب اذا كان اغنى غني في تلك الدِّلة ،
وقد كانت الطريقة أقطاعاً كما تقدم البیان .

« بوران بنت الحسن عروس المأمون »

استمها خديجة وبوران لقبها او هو اسم فارسي واشتهرت به ، ولدت للسنة ١٩٢ هـ ،
وعُقِد عليها للمأمون في السنة الثانية بعد المائتين ، وكانت عرسها في العاشرة بعد
المائتين ، ولم يذكر المؤرخون شيئاً عن جمالها وعقلها ، بل ردد كلهم عبارة واحدة ،
نلك ان المأمون تزوجها لمكان ابها منه وهذا ليس بالبرهان المقنع ، فقد كانت في
آل العباس من هم اعلى قدراً في عيون الناس من الحسن بن سهل وأقرب رَحماً من
المأمون ، ولو أزوجها المأمون واحداً من بني العباس المقربين منه لكفي الحسن بذلك

شرفاً ، فلا بد من ان يكون اختيار المأمون بوران لجمالها ولعقلها وعلمها او لكايتها معاً . وقد كانت العقد في الثانية بعد المائتين للهجرة كما تقدم وعمرها يومئذ عشر سنوات ولم يتم الزواج الا في العاشرة بعد المائتين ، وكانت بوران قد بلغت الثامنة عشرة وهذا مجال نظر للناس ، فقد كانت العرب — وحرّ بلادهم معلوم ولا سيما بغداد — يتزوجون البنت في الثانية عشرة فما فوقها ويرون كمال فتوتها وزهو صباها في الرابعة عشرة ولا سيما الملوك والامراء ، فما السبب في تأخير عرس المأمون ثماني سنين ؟ أكانت غزوات المأمون وكثرة الفتن من الأسباب التي عاقته كل هذه المدة ام لسبب آخر ؟ لقد أغلغل المؤرخون الاولون ذكر كثير من امثال هذه الاحداث الهامة وأسبابها ، بيد ان لها شأنًا عظيمًا في عين الناقد مستطلع عادات ذلك الزمن واخلاق اهل وسائر احوالهم ومدنيتهم ، وبات الفوز بذلك بعد تطاول القرون ونقل الشؤون مما لا مطعم في الوصول اليه از الحصول عليه من مظاهره في كتب التاريخ ، فحسبنا ان نشير الى ذلك هذه الاشارة حتى اذا انفق لاحد الادباء العثور عليه في تضاعيف القصص او في كتاب من كتب الادب نبه عليه خدمة للعلم .

« ليلة العرس »

كان الحسن بن سهل مع اهل بيته في معسكره بقم الصلح وهي بلدة كانت بين الكوفة والبصرة على نهر كبير يسمى الصلح تبعد ثماني مراحل عن بغداد ، فنقض المأمون اليها لثان ليل من مضت رمضان في السنة العاشرة بعد المئتين بنقده العسكر والقواد والندماء والمغنون والشعراء والعلماء والقضاة والفقهاء وكبار العباسيين من اهل بيته ، وسار خلفه الحشم والخدم والاتباع وسائر بطانته على الخيول الرائعة والبراذين والبغال الفُرّه ، وكان يسبقهم الجمالون والمكارون والحمالون والملاحون والفراشون في جمع لا يدرك الطرف آخره .

وكان الحسن بن سهل قد خرج لاستقبال الخليفة بعسكره وحشمه ، فلما وقع بصره على موكب المأمون امر عسكره بالمسير امام عسكره ، وترجل حتى اقبل على قدمي المأمون ويديه يقبلهما ، فقابلته الخليفة بأنسه وبشاشته ثم امره بمواكبته فسار في بطانته ، ولما وصلوا الى قم الصلح خرجت المدينة باجمعها الملائكة المأمون وكانت يومًا

مشهوداً لم ير مثله الراؤون ، فنزل الخليفة عن جواده تكسنته العظمة والجلال وتبسم له
 تغور الاماني والاقبال ، وذلك الموكب العظيم يسير بين يديه وكانت قد ضربت له
 الخيام والسرادات والقباب من منسوج الحرير والديباج الموشى ، فدخل قبة
 فرشت ارضها بالبسط والزراحي الخسروانية وعلى طاقاتها الستور اليمانية وفي حضرة
 عظماء الدولة واكابرها والشعراء والندماء والمغنون والعازفون ، وقام الحسن بن سهل
 يخدم بين يديه ، ثم مدت أمامه الموائد الفارسية ، وتقدمت الوان الطعام في الاواني
 الذهبية وانشد المنشدون وتبارى المغنون ، ولما كانت الليلة الثالثة من وصوله زُفَّت
 اليه (بوران) فلما دخل قبتها كانت عندها (حمدونة) بنت هارون الرشيد أخته
 لأبيه و (زبيدة) امرأة هرون الرشيد ام اخيه الامين و (جدة بوران) ام ابوها ،
 وكان قد أوقد عندها شمعاً عنبر مرفوعة على شمعدان من الذهب ثقلها مئة من ،
 وذلك نحو خمسة وعشرين رطلاً حلياً ، وفرشت ارض القبة بحصير منسوج بلذهب ،
 ولما اقتربت بوران من المأمون لتهنئته بقدومه نثرت جدتها عليها الف درّة من أنفاس
 ما يكون من كبار اللؤلؤ كانت في صينية من الذهب ، ولما رأى المأمون تساقط اللآلي
 على قدميه قال قاتل الله ابا نواس كأنه شاهد هذه الحال حين قال :

كأن صغرى وكبرى من فواقها حصباء درّ على ارض من الذهب

ثم امر بجمعها فجمعت فأعطاهها بوران وقال سلمي ما ترغبين ، فلم تنطق بحرف ،
 فقالت لها جدتها (كلى سيدك فقد أمرك) فقالت : أسأل سيدي الرضاء عن عمه
 الامير (ابراهيم بن المهدي) — وكانت ذنبه عظيماً — فقال قد فعلت ، فقالت :
 واسأل سيدي الاذن لسيدي ام جعفر في الحج — وهي زبيدة زوج هرون الرشيد —
 فقال أذنت ، ثم ألبستها البدلة اللؤلؤية الأموية المشهورة ، ولعلمها بما غنمه العرب من
 الروم في دمشق اذ مما وقع لهم من الفرس عند فتح المدائن ، ثم استولى عليها العباسيون
 في جملة ما استولوا عليه من خزائن الأمويين اذ من المعلوم ان الدولة الأموية لم تصل
 الى ما بلغت الدولة العباسية لذلك المهد ، من رقة العيش في المأكول والمشروب والملبوس
 والمفروش والماعون وسائر عوائد الترف وأحوال الجسد والنعيم ، فليس بالمعقول ان
 يتزيا العباسيون بنزهم او ان يلبسوا ملابسهم وبين البيتين من البغضاء ما هو معروف .

وبينما كانت ام الحسن بن سهل تنثر اللآلي على المأمون وبوران ، كانت والد بوران ينثر على الهاشميين والتواد وعظماء الدولة وسائر الطبقة الاولى بنادق مسك في كل بندقة رقعة باسم ضيعة او دار او مزرعة او جارية او فرس او غير ذلك ، فيفتح الرجل البندقة ويقرأ ما فيها ، ثم يمضي الى وكيل أو رصد لذلك فيدفع اليه الرقعة والوكيل يسلمه ما في الرقعة سواء كان ضيعة أو ملكاً او جارية او غيرها ، ثم خرج الحسن من ذلك النادي وأقبل على الطبقة الثانية ، فبدأ يفرق بدر الدنانير الى عشرة آلاف ، ثم انتقل الى الطبقة الثالثة فنثر عليهم الدراهم ونواخج المسك وبض العنبر . وظل المأمون عند الحسن تسعة عشر يوماً كان يُعَدُّ له فيها ولجميع من معه كل يوم من الأطعمة الملوكية والمشروبات وسائر اسباب اللهو والسرور ما يقصر عنه الوصف ، فلم يكن في العسكر ومن ضمهم من المكارين والجمالين والملاحين من يحتاج الى شراء شيء لنفسه او لدوابه ، وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين مليون درهم او خمسة ملايين ليرة فرنسوية ذهباً .

ثم نهض المأمون وسار ومن معه الى مدينته المأمونية وكان بعث فأمر النواتية بجهيز الحراقات (السفن) لاجازة نخواس الناس بدجلة من بغداد الى قصوره في المأمونية (مدينة المأمون) لحضور الولائم ، فكانت الحراقات المدة لذلك ثلاثين الفاً تسير في دجلة ، وقد تأنقوا في تزيينها بالالوان وطلوها بالذهب وفرشوها بالبسط والسجادات وأناروها ليلاً بمختلف الالوان ، فكانت كالسهام تشتت قلب الماء وتظهر عن بعد في الظلماء كأنها نجوم السماء ولا يسمع منها الا اصوات المغنين والمغنيات والعاظفين والعاذفات بين عود ومزمار وكاسات نِدار .

وفي فمه ناي يُدير سُلَافَةً هي السكر الا انه لا يُحَرِّمُ

« وفي فمها شِبابَةٌ تبعث الهوى ونحن سكوت والهاو يتكلم »

وكانت مدينة المأمون قد لبست من الزينة حلاً ما وراءها منتظم غاية ، وكان الخطب المَعْدَّة للوقيد بدار الطنج مائة واربعين بغلاً مدة عام كامل ثلاث مرات في كل يوم وفني الخطب لليلتين فأوقدوا القصب بصبون عليه الزيت .
اما قصور المأمون فقد كانت تلك الليلة في حسن وأبهة يعجز القلم عن وصفها

وكان الراكب في دجلة يشرف عليها من بعد شاسع ولا سيما قبايها ، فمن محص
بالجص الأبيض الناصع كالفضة البارقة ومن مطلي نصفه السفلي بالأخضر الناضر
والصف العلوي بالذهب النضار وفوقها جامات الذهب نثلا مع كالشهب المقلدة ،
ثم يبدو للعيون جمال تلك الحدائق الممتدة الى أفاصي مدى البصر تنسرب فيها
جداول الماء من برك عظيمة الاتساع مختلفة الاوضاع ينصب فيها الماء كالفضة الدائبة
من افواه حيتان او سباع او نسور او ثيران ، من مرمر مختلف الالوان ، بالغ من
الصناعة نهاية الاتقان ، بين جنات قد ازدحت غياضها واشتبتك اشجارها وتعت
أطيافها وتعاقت أغصانها وامتد ظلها ، يسير فيها الداخل تحت أقبية وأطواق من
فيفساء الاوراق ، في مماش كأنما ارضها خمائل سندسية ، وعلى جانبها درابز بنات
لا يدرك الطرف منتهاها ، قد اعترش عليها الياسمين ، وتعلق بها الورد والنسر من ،
ونمت حولها الازهار والرياحين ، وقامت وسطها القصور الباذخة والصروح الشامخة
والاروقة المرتفعة والجواسق النخمة ، ذات الساحات المترامية ، والصحون الفساح
والافنية الرحاب ، والاندية العظيمة طيقانها أبواب وابوابها حيرة الالباب ، قد أرخيت
عليها ستور الديباج والاستبرق كأنها اجنحة الطواويس ، وفُرشت ارضها بأنواع
الفسيفساء تحاكي ازهار الجنان ومتعادي الحيوان ، من أسود ونمور وغزلان برخام
متعدد الالوان ، يخالطه خشب الصندل والعود الهندي ، وفي كل بهو بركة او برك
نفساب اليها المياه الصافية على ملون المرمر كاللجين الذائب ، والسمك على اختلاف
الاشكال والالوان تصعد في مائها ونحط وتعمو كما يعوم فيها البط ، وقد رُقشت
حيطان تلك الابهاء بالقاشاني البديع ، يحاكي بألوانه ورسومه ازهار الربيع ، ورُفعت
سقوف تلك الاندية والابهاء الرحاب على اعمدة المرمر ذوات الالوان الباهرة ، وقد
أحكم صنعها ونقشها وتكامل حسنهما بتذهيبها ورقشها ، وقامت قبايها على قناطر وحنايا
واضلاع ، بلغت بها صناعة الهندسة غاية الابداع ، ودارت فيها الطيقان كالقلائد في
اعتناق الحسان ، وقد قعدت على اساطين وسوار ركزت على قواعد من الصوان ،
ونقنت باقداح كالنرجس من رخام ، وبلغت من الزهو والارتفاع ما لا سبيل معه
الى إمتاع النظر بأعاليها الا بانقلاب رأس الناظر الى آخر المستطاع ، وقد طلبت

تلك السقوف والقباب بألوان تحار في محاسنها الابصار ، و يأخذ إبداع رسومها بجماع القلوب ، وألبست من الذهب الوهاج انواراً يرتد عنها الطرف كليلاً .
وكانت لا تنفع العيون في تلك الاندية والابهاء والغرف والمقاصير الا على محاسن قد نناهت في الطرف ، وملاحة وإبداع بقصر عنهما كل وصف ، فمن حيطان من الزجاج رُفعت وراء الشرفات لتعكس عنها الانوار الى داخل القباب ، ومن حيطان من جسيم الرخام حاككت بحجرها ورسومها حباتك الغمام ، او اجنحة الطيور او غلائل الحسان او ظهور السمك والحيتان ، او صور الغزلان وغيرها من الحيوان ، بين مجعد ومفوف ، ومسيّر ومنحّر ، ومكفوف وملفوف ، الى أشكال والوان يعجز وصفها ، ويضيق عنها التفصيل والتعبير ، والتثيل والتصوير ، وفي كل قصر قصور ، وفي كل ناد روضة وغدير وغرف ومقاصير ، وسجوف ومرسلة وستور متراخية وسرر مرفوعة وارائك مصنوعة وجمال منصوبة ومجالس مفروشة ومقاعد موضوعة وكراسي مصفوفة وطنافس مبسوطة ، وموائد قائمة وابار بقى مبثوثة وخواب مسنودة ونرجسيات منسوفة ، وأوان مختلفة الاشكال نادرة الحسن والمثال ، من الصيني والزجاج والذهب ونفائس المعدن وغرائب التحف وعجائب الطرف ، ومجامر العنبر ومباخر الند وقماقم ماء الورد الى ما لا يبلغه عد ، ولا يتخيله فكر شاعر .

تلك هي القصور التي قامت بها الافراح المأمونية والولائم العباسية ، ولما وطئت ارضها بوران اعطاها المأمون في مهرها الف حصة من نفيس الياقوت .
وقد ظلت الولائم قائمة في تلك القصور اياماً متوالية ، وكل الذي وصفناه ان هو الا خيال ضئيل لحقيقة ذلك العرس الجليل ، فانه عرس لم يرو له التاريخ مثيلاً ولا بدع فالما مأمون فرد لم يزل الزمان بمثله بجيلاً .

ولعلنا نأتي في محاضرة أخرى على ما كان للدولة الأموية الثانية سيفه الغرب من الفتوحات الباهرة ، والآثار الخالدة الفاخرة ، والمدنية العظيمة الزاهرة ، مما ننشر له الصدور وتهتز النفوس ، وتعلو القيم وترتفع الرؤوس ، ويقال عنده لا عطر

بعد عروس .

عضو الجمع العلمي العربي

قسطنطين الجمعي

م ١٢